ملاحظات ذاتية حول التحديات التي يفرضها التطور التكنولوجي المتسارع في المجتمع – قطاع غزة

في معسكر جباليا شمال قطاع غزة، بالرغم من حداثة سني إلا أنه تسنى لي أن أعاصر شكل الحياة بين جيلين، الأول كان التلفزيون هو الشاشة الأولى التي تكاد تكون الوحيدة في حياة ابناءه، والذي يبتكر فيه الصغار ألعابهم وتسلياتهم التي لا يعرفون لها بديلًا للتعامل مع الوقت الممتد في أيامهم التي كانت تبدو أطول من الحاجة، وجيل آخر صار فيه التفلزيون ديكور منزلي قديم، وبلغت نسب امتلاك هواتف ذكية معه وفق مركز الإحصاء الفلسطيني 58% بين الأفراد فوق سن عشرة سنوات في قطاع غزة[1]، وهي نسبة فائقة تعني أن أكثر من نصف المجتمع الذي يشكل الأطفال نصف تعداده السكني[2] يحملون هواتفًا ذكية، فيما أصبح الإنترنت ضرورة حياتية يومية لا يمكن الاستغناء عنها بحال وعلى وجه الخصوص للشباب الذين صاروا يتسولون إشارة الانترنت على الأسطح ومن النوافذ في حال غيابها أو ضعفها. وما بين الجيلين برزخٌ من بضع سنوات كان يقتصر فيه استخدام الإنترنت على بعض الفئات الاجتماعية المتعلمة والتي تستخدمه في العمل وربما الأكثر انفتاحًا، ذلك أنني لم أزل أذكر الوقت الذي أُعتبر فيه الإنترنت "مجالًا للانحلال الأخلاقي" يقع على عاتق كثير من العائلات المحافظة حماية ابناءهم، وفتياتهم على وجه الخصوص، من شره وفتنته وخوفهم من انسياب عقال الحشمة الاجتماعية المفروضة على الجميع في الخارج.

وعليه، إن التطور السريع والهائل في انتشار الانترنت والهواتف الذكية في المجتمع الغزي لم يكن استثناءً من ركب التطور الرقمي العالمي، وهنا يمكننا أن نسهب في وصف الآثار التي خلفتها التكنولوجيا الحديثة على المجتمعات الإنسانية سواء بسلبياتها أو إيجابياتها، والتي طالتها الكثير من الدراسات السابقة في علم الاجتماع الرقمي وعلم النفس الاجتماعي ومن رؤى نظرية ومفاهيمية متنوعة[3]، ولكنني أرمي هنا إلى وصف مشاهداتي الاجتماعية للحالة ثم طرح الأسئلة عليها.

ساهم التطور التكنولوجي وانتشار وسائل الاتصال والانترنت في مقاومة الحصار المادي المفروض على سكان القطاع، فإن كان الغزي معزولًا في حركته وإمكاناته عن العالم الخارجي، إلا أن وسائل التواصل أعادت موضعته كجزء من العالم

---

[1] جهاز الإحصاء الفلسطيني، 3 يناير 2024. الموقع الالكتروني: https://www.pcbs.gov.ps/postar.aspx?lang=ar&ItemID=4511.

[2] جهاز الإحصاء الفلسطيني، 3 يناير 2024م. الموقع الإلكتروني: https://www.pcbs.gov.ps/postar.aspx?tabID=512&lang=ar&ItemID=4675&mid=3915&wversion=Staging

[3] Illouz Eva. 2023. *Cold Intimacies : The Making of Emotional Capitalism*. Cambridge: Polity Press. *The End of Forgetting : Growing Up with Social Media*. 2019. Cambridge Massachusetts: Harvard University Press. Karin Romero-Ruiz and others. Information and Communication Technologies Impact on Family Relationship, Procedia - Social and Behavioral Sciences, 237, 2017,P 30-37. Lanigan Jane D. n.d. "A Sociotechnological Model for Family Research and Intervention: How Information and Communication Technologies Affect Family Life." *Marriage & Family Review* 587–609. https://doi.org/10.1080/01494920903224194.

أسماء الزغاري، التحولات الرقمية وانعكاساتها على ثقافة الشباب قراءة سوسيولوجية في ضوء نظريتي مجتمع المخاطر واللامساواة، جامعة دمنهور، مصر، 2023م. كلثوم بيميون، السياقات الثقافية الموجهة للهوية الرقمية في ضوء تحديات المجتمع الشبكي: من التداول الافتراضي إلى الممارسة الواقعية، المجلة العربية لعلم الاجتماع، ع 33، 2016م. ديفيد انغلز وجون هيوسون، مدخل إلى سوسيولوجيا الثقافة، ترجمة: لما نصير، المركز العربي للدراسات العليا، 2013.

كله وما يجري حوله، وجعلت المؤثرات الخارجية بخيرها وشرها تصيبه كما تصيب غيره، فإن كان مُغيبًا عن العالم إلا أنه الأخير مرئيٌ بطريقة ما بالنسبة إليه، وإن كان هو الرائي غير المرئي في كثير من الأحيان. كما أتاحت للأفراد المهتمين ببعض الفنوان مثل الموسيقى والسينما والأدب والقراءة القدرة على الوصول المعرفي وتجاوز العوائق المادية السياسية التي تستهدف عزلهم واغراقهم في الجهل والظلام، ومن ثم فإن وسائل الاتصال هي الأخرى ساهمت في الحراك الاجتماعي "التقدمي" لصالح حياة تبدو أكثر انفتاحًا وتخليًا عن القيود الاجتماعية لمرحلة سابقة من "الصعود الإسلامي السلفي" وهو ما أدى للتغير في عديد من مظاهر الحياة مثل اللباس وحتى شكل وأصناف الطعام اليومي للأسرة ونمط الحياة الاستهلاكي (في حدود المقدرة) وطموحات الأجيال الصاعدة من البروز والتأثير على مواقع التواصل الاجتماعي.

ووفقًا للمشاهدات الخاصة فإن العمر الافتراضي القديم للنضج لم يعد هو هو، وقد أدى انفتاح الشباب على مواقع التواصل والمعرفة المشتركة إلى حرق المراحل بينهم وبين من يكبرونهم في الخبرة الاجتماعية، فلم يعد العمر فارقًا معتبرًا في الوقت الذي تعامل شباب اليوم مع تحديات وكم معرفي هائل لم يكن من سبقونهم يتاح لهم التعامل معها، وهو ما قد يقود إلى تقادم الخبرة الاجتماعية الانسانية للآباء، وازدياد الفجوة بينهم وبين ابناءهم باعتبارهم ينتمون إلى عوالم مختلفة، وعدم قدرة معرفة الآباء على أن تكوَّن رأس مال ثقافي عائلي مناسب. وفي الوقت ذاته فإن انفتاح أفراد الأسرة على أنماط الحياة المختلفة عبر مواقع التواصل الاجتماعي، وهي أنماط تفوق في كثير من الأحيان القدرة الشرائية للأسرة، في حين تفتح أعين أفرادها على حيوات كان يمكن عيشها، ولكن المسؤول في نظرهم هو عائلاتهم التي أنجبتهم دون أن توفر لهم ما يحتاجونه للعيش، وهو ما يقود في حالات إلى غياب حس التفهم بين الأفراد داخل الأسرة وزيادة حالة الاحتقان العائلي وفقد الحس والشعور الأسري ما دام كل من أفراد الأسرة يُحمل طرفًا آخرًا مسئولية وضعه. كما أن انفتاح البصر على حيوات الآخرين البعيدين والمختلفين يساهم في خلق حالة من الإحباط الاجتماعي الناتج عن حيوات مفقودة ومرئية في الوقت ذاته كان يمكن عيشها بظروف مختلفة أو خيارات أخرى.

ومن جهة ثانية أدى التطور التكنولوجي إلى فسح مجالًا أكبر للأفراد الانعزاليين في المجتمع أن يعيشوا في عوالمهم الخاصة التي يخترعونها لأنفسهم، ضمن مجال اجتماعي وجغرافي شديد الضيق، وليبنوا ضمن هذه المجتمعات هويات فردية يمكن أن توصف بأنها فرعية أو بينية، تبعد فيها المسافة ما بين الفرد ومجتمعه حتى يفقد القدرة على فهم الرموز الاجتماعية، وفي المقابل قد يكون هؤلاء الأفراد نخب ثقافية حقيقية ولكن تمتد بينهم وبين مجتمعاتهم مسافات من العزلة، لا يمثلون فيها غير أنفسهم، وإن كانوا صورًا وتنويعات من مجتمعٍ هم صنيعته، وهو ما يعزلهم عن التأثير المجتمعي المتبادل والاشتباك مع قضايا المجتمع وممارسة دور في الفضاء الاجتماعي.

وإن هذه التأثيرات أعلاه هي بعض مما بدا لي أبرز من غيره في المجتمع من تفاصيل أخرى لمؤثرات يومية تبدو لي ثانوية أو أنها أكثر عمومية وقد تصلح للمناقشة في مجتمعات أخرى أو أنها خارج اهتمامات علم الاجتماع. واتساءل هنا عن الأثر الحقيقي لما ذُكر أعلاه من ملامح التطور التكنولوجي على الأسرة في المجتمع بالأخذ بالنظر لشكل الحياة ما بين جيل التلفزيون وجيل الهاتف الذكي، وهل هذه التأثيرات تؤسس لتغير بنيوي في المجتمع أم أنها لا تعدو كونها ملامح لتطور مادي يصير تدريجيًا جزءًا لا يتجزأ من نمط الحياة اليومية يجري استيعابه ضمن ثقافة المجتمع وحدوده وعاداته

وتقاليده؟ وإن كانت أجهزة التواصل ومواقع التواصل الاجتماعي في أثرها ومخاوفها كما تبدو لي لا تعدو كونها مرحلة من حياة الأفراد سرعان ما يتجاوزونها مع الوقت لمراحل أكثر جدية من حياتهم لا تغدو فيها حساباتهم على مواقع التواصل ذات أهمية كبيرة بالنسبة إليهم، وفي الوقت الذي لا يجد فيه الأفراد الفضاءات الاجتماعية المواتية لممارسة حرياتهم أو فردانيتهم، فإن كل ما تتمخض عنه يجري تنميطه ضمن فضاء اجتماعي ضيق ومغلق وغير قادر على تنفس حريته سوى في زوايا معزولة ومنبوذة. وهو ما يشير بالنسبة لي إلى أن العوامل السياسية والجغرافية والاقتصادية التي تحكم قطاع غزة أقوى وأكثر تأثيرًا من الفضاء الافتراضي في الحياة الجمعية.

inprotected.com